

بفضل الله وعونه نشرنا في العدد السابق آخرَ قسطٍ من الجزء الثاني للتفسير الكبير، مع العلم أن هذا التفسير يحتوي على عشرة أجزاء. وسنبداً بعون الله نشر الجزء الثالث منه عبر حلقات مسترسلة ابتداءً من هذا العدد. ورأينا أنه من الواجب توضيح أمر هام يجيب على تساؤلات عديدة قد تخطر على بال بعض القراء الكرام، وهو:

- إن تفسير السور من "آل عمران" إلى "التوبة" لم يتم تدوينه في هذا المجلد لأنه غير موجود في النص الأصلي باللغة الأردية، لذلك يجد القارئ أن هذا المجلد يبدأ من تفسير سورة يونس بدلاً من تفسير سورة آل عمران. «التقوى»

من حكم ترتيب وتدوين

آيات القرآن الكريم

مقدمة المفسر

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم،
بسم الله الرحمن الرحيم.
نحمده ونصلي على رسوله الكريم.
بفضل الله ورحمته - هو الناصر

«سورة يونس»

كلمة عن التفسير الكبير

فيما يلي ملاحظاتي على تفسير سور القرآن الكريم من سورة يونس إلى سورة إبراهيم وهي في طريقها إلى النشر. لقد بذلتُ فيها قصارى جهدي لأقدم مفهومًا سليمًا صحيحًا للقرآن الكريم، وإنني على يقين أن معظم ما جاء في هذا التفسير من مفاهيم ليست من بنات أفكاري، وإنما هي من عطاء



من دروس: حضرة مرزا بشير الدين محمود أحمد

المصلح الموعود رحمته الله الخليفة الثاني

لسيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود عليه السلام

”

يقول الرسول الكريم ﷺ إن للقرآن سبعة بطون، وإن كل بطن يتضمن عدة معانٍ. فبهذا التصريح النبوي الشريف يصبح من المستحيل أن يكتب أحد تفسيراً للقرآن الكريم يحتوي على كل ما فيه من معانٍ ومفاهيم. ومن ادعى ذلك فإنه لا يعدو أن يكون جاهلاً أو مجنوناً. ومن عزأ إلى ملاحظاتي شيئاً من هذا القبيل فإنني بريء منه كل البراء.

“

الله الرحمن، ومع ذلك فيما أن عقلي أيضاً قد ساهم في هذه العملية فمن الممكن أن يوجد في هذا التفسير ما لا يفني بالمراد القرآني كما ينبغي. لذا فإنني أتبهل إلى الله سبحانه وتعالى أن ينفع عباده بما يشتمل عليه كلامه من الخير والبركة، وأن يحفظهم من ضرر الأخطاء البشرية...

ولو أنهم أخذوا في الاعتبار قول النبي ﷺ عن اليهود: "لا تصدقوهم ولا تكذبوهم"، لما واجهوا هذه المشكلة. أما ما عدا هذين الخطأين، فالله بنفسه جزأؤهم على ما بذلوا من جهود جبارة وخدمات عظيمة للقرآن الكريم.

كما أن هناك خطأين آخرين ارتكبهما هؤلاء المفسرون، غير أنني أرى أنهم وقعوا فيهما بتأثير تيار زمانهم. وأول هذين الخطأين: اعتبارهم آيات من القرآن منسوخة. والخطأ الثاني: أنهم لم يولوا موضوع الترتيب فيما ورد في القرآن من مطالب ومفاهيم العناية الكافية. ومع ذلك أرى أنهم قد بذلوا جهوداً مفيدة بهذا الصدد على عكس تيار زمانهم، وسعى الباحثون منهم أن ييطلوا زعم البعض أن كذا وكذا من آيات القرآن الكريم منسوخة، بيد أن سعيهم هذا لم يكن نابغاً عن إيمانٍ منهم بأن لا نسخ في القرآن بتاتاً. وكان للبعض

كثيراً وفق متطلبات هذا العصر. ذلك أن لكل عصر حاجات تختلف عن حاجات العصور الأخرى. والقرآن زاخرٌ بعلوم تخص حاجات عصر دون آخر يكشفها الله تعالى في موعدها وأوانها.

ولقد أسدى المفسرون القدامى خدمة جليلة للقرآن - لا يمكن إنكارها أبداً - وفق مقتضيات عصرهم. ولو أنهم تجنبوا خطأين لآتستت تفاسيرهم بمحاسن خالدة. وأول هذين الخطأين أنهم أفسحوا في تفاسيرهم المجال لما أشاعه المنافقون من أباطيل بعد أن اندسّوا في صفوف المسلمين، فسبّب بعض محتوياتها إساءةً للإسلام وللنبي ﷺ. وثانيهما أنهم اعتمدوا لدرجة كبيرة على كتب اليهود، والأدهى من ذلك أنهم لم يعتمدوا على أمور من التوراة مصدّقة من قبل القرآن، وإنما على روايات يهودية، فأتاحوا بذلك للمعارضين فرصة الطعن في الإسلام.

ولقد رأيت لدى تحرير هذه الملاحظات أن أرسّخ في الأذهان ترتيب الآيات والسور بصورة جيدة. وأرى أنه سوف تنكشف الآن على القارئ سلسلة من المعاني القرآنية في نظمٍ كاملٍ ومحكم. إن موضوع الترتيب القرآني هو من المواضيع التي كشفها الله عليّ كشفًا خاصًا. ولا يحيط أحد من علم الله إلا بما شاء، وسع كرسيه السماوات والأرض.

يقول الرسول الكريم ﷺ إن للقرآن سبعة بطون، وإن كل بطن يتضمن عدة معانٍ. فبهذا التصريح النبوي الشريف يصبح من المستحيل أن يكتب أحد تفسيراً للقرآن الكريم يحتوي على كل ما فيه من معانٍ ومفاهيم. ومن ادعى ذلك فإنه لا يعدو أن يكون جاهلاً أو مجنوناً. ومن عزأ إلى ملاحظاتي شيئاً من هذا القبيل فإنني بريء منه كل البراء. وإنه ليكفي ملاحظاتي هذه ميزةً وشأناً أن كشف الله عليّ فيها - برحمته وفضله - أموراً

الآخر مساعٍ لا بأس بها فيما يتعلق بترتيب المواضيع القرآنية.

وعندي أن العلامة ابن كثير، والعلامة أبا حيان صاحب البحر المحيط، والعلامة الزمخشري صاحب الكشاف لجديرون بالذكر الخاص من بين هؤلاء المفسرين الباحثين، وإن كان الأخير موصوفاً بالاعتزال. أما الطبري فقد قام بعملٍ بارزٍ بصدد جمع الروايات المتعلقة بالتفسير، بينما أحسن العلامة أبو البقاء صنفاً في مجال بيان إعراب القرآن بكتابه "إملاء ما من به الرحمن". ولا ريب أن تفسير "روح المعاني" يعلو على كل المجهودات التفسيرية التي بُذلت في القرن الماضي بصفته كتاباً جامعاً للعلوم الثقلية. إن صاحبه يذكر الروايات بكلماته هو عموماً كما جرّبنا، ولكن تفسيره يتضمن ملخصاً لكثير من التفاسير دون شك.

والآن نأتي على ذكر المراجع التي اعتمدت عليها في هذا التفسير. فأولاً وقبل كل شيء أقدم شكري العميق لذلك المرجع الأزلي الأبدي للعلوم، الذي هو منبع كل علم، ولا علم دونه سبحانه وتعالى. إن ذلك العليم هو النور الذي يهب كل علم، وهو الذي وهب لي -بفضله ورحمته- فهماً للقرآن الكريم، فكان ولا يزال

يكشف لي الكثير من المعارف القرآنية. وما سُجِّل في هذه الملاحظات ليس إلا جزءاً من تلك المطالب. فسبحان الله، والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أما المرجع الثاني فهو سيدنا محمد المصطفى ﷺ، الذي عليه نزل القرآن، فطبّقته على نفسه بكل حركاته وسكناته، وأحاسيسه وعواطفه، وأفكاره وإراداته، حتى لكأن القرآن قد تجسد بشخصه الكريم. لم يكن يريق عينيه إلا من نور القرآن، ولم تكن كلماته ﷺ سوى أزهار من بستان القرآن. لقد سألتناه فأعطانا، وإنّ هاماتنا لتنحني أمام مننه وأياديه. اللهم صلّ على محمد وعلى آل محمد وبارك وسلم إنك حميد مجيد.

وأما مرجع العلوم القرآنية في هذا العصر فهو سيدنا مرزا غلام أحمد الإمام المهدي والمسيح المسعود عليه الصلاة والسلام، الذي قد طهّر دوحه القرآن الباسقة من كل ما التصق بها من النباتات الطفيلية من روايات باطلة، ورواها -شجرة الجنة هذه- بحول الله وقوته، ومكّنها من أن تستعيد نموّها ونضارتها من جديد. فالحمد لله الذي قدّر لنا أن نرى نضارتها وبهاءها مرة أخرى، وأن نأكل من ثمارها، ونجلس في ظلها. فمبارك الذي عُهد إليه

بستان القرآن. مبارك الذي أعاد إليه الحياة من جديد، وجلّى محاسنه. مبارك الذي أتى من الله وعاد إلى الله. اسمه خالد وسيظل خالدًا للأبد.

لقد وهبني الله سبحانه وتعالى الكثير من معارف القرآن. والحق أنه لا فضل لي في ذلك، وإنما هي محض أفضال الله عليّ. وما كنت لأنأله لولا جهود أستاذه المكرم سيدنا المولوي نور الدين ﷺ الخليفة الأول (لسيدنا الإمام المهدي والمسيح الموعود ﷺ) الذي كان له في ذلك دور كبير. فعندما كنت صغيراً كان المرض يلازمي دائماً. فكان حضرته يُجلسني إلى جانبه قائلاً لي في معظم الأحيان: حبيبي، القراءة سوف ترهقك، أنا أقرأ وأنت تسمع. وكان في أحيان كثيرة يقرأ لي القرآن ويفسره. فهو الذي قد جعلني مولعاً بمعارف القرآن. أما الذي جعلني مشغولاً بحب هذا الكتاب الخالد فهو سيدنا الإمام المهدي مؤسس الجماعة الإسلامية الأحمدية ﷺ. لقد كان أستاذه عاشقاً للقرآن، وكان يتمنى لو أن جميع الخلق يقرؤونه. فعلمني ترجمة معانيه أولاً ثم ترجمة صحيح البخاري، ولما فرغ من ذلك خاطبني قائلاً: يا حبيبي ها قد تعلّمت كل علوم الدنيا. فكل ما عداهما ليس إلا زياداتٍ أو شروحاتٍ لهما. ولقد كان

سورة يونس

مكية، وهي مع البسملة مائة وعشر آيات وأحد عشر ركوعاً*

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلي على رسوله الكريم

لقد أمرنا في القرآن الكريم بالاستعاذة قبل أن نبدأ بقراءته. يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (النحل: ٩٩).. أي: استعن بالله قبل قراءة القرآن واسأله ملاذَه لمواجهة الشرور بجميع أنواعها. والملاذ نوعان؛ أحدهما: أن لا يصيبنا شرٌّ، والثاني: أن لا يضيع ما بأيدينا من خير. والملاذ المطلوب هنا يشمل النوعين: أي.. حَذَارِ أن يفلت ويضيع من أيديكم هذا التعليم القرآنيّ الأسمى من جرّاء مرضٍ في القلب، أو صحةٍ شريرة، أو عقابٍ على إثم، وإياكم أن تتقاصر أفهامكم عن استيعاب سليمٍ صحيحٍ لهذا التعليم، فيصيبكم شرٌّ وضرر.

مرزا محمود أحمد

٢٠ ذو القعدة ١٣٥٩ هـ

٢٠ فتح ١٣١٩ هـ

٢٠ ديسمبر ١٩٤٠ م

* بالإضافة إلى تقسيم القرآن إلى أجزاء وأحزاب وأرباع، فإنه ينقسم أيضاً إلى ركوعات.. وهي أقسام صغيرة تناسب القراءة في ركعات الصلاة، وهي مألوفة في المصاحف المطبوعة خارج الجزيرة العربية.. وخاصة في القارة الهندية وإيران وأفغانستان وإندونيسيا وبعض بلاد المغرب العربي.

”

يا من تحبون أولادكم الفانين، وتسالون الله لهم طول العمر، ألا تسهمون في مساعٍ تُبذل لإحياء هذه الذكرى الربانية والمنّة الإلهية. ألا فأحيوها يهب لكم الله ولأجيالكم حياة خالدة. انهضوا فلا يزال هناك وقت، وسارعوا إلى باب رحمة الله الذي لا يزال مفتوحاً.

“

قول أستاذي هذا عين الصواب، وما لم يتمتع الإنسان بهذا اليقين تجاه القرآن والحديث فلا حظّ له من معارف القرآن أبداً.

وأخيراً وليس آخراً، أدعو الله تعالى أن يشمل بفضله كلّ أولئك الذين ساهموا في إخراج ونشر هذه الملاحظات التفسيرية. لقد اجتهدوا ليل نهار وأتموا هذا العمل في مدة وجيزة. جزاهم الله من عنده على جهودهم وتضحيتهم جميعاً. آمين.

أيها القراء الكرام، أقول لكم: إن القرآن الكريم هو للتعليم والتعلّم والعمل به. فإذا وجدتم في هذه الملاحظات شيئاً حسناً فاقرواها، وعلموها وانشروها، واعملوا بها، وادعوا الآخرين وحُثُّوهم على الاقتداء بكم. فهذا هو السبيل الوحيد لإحياء الإسلام من جديد. يا من تُحبون أولادكم الفانين، وتسالون الله لهم طول العمر، ألا تسهمون في مساعٍ تُبذل لإحياء هذه الذكرى

ولكي تقوم بهذه الاستعاذة بصورة عملية علمنا الله عز وجل دعاء: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". لقد قال البعض بأن هذه الآية تأمرنا بالاستعاذة بالله بعد الانتهاء من قراءة القرآن وليس قبلها، ومن أجل ذلك جاءت المعوذتان - سورة الفلق وسورة الناس - في آخر القرآن الكريم.

ومما لا شك فيه أنه لو استعاذ الإنسان بالله بعد الانتهاء من قراءة القرآن الكريم أيضاً فإنه حسنٌ ومقبول، ولكن الثابت من سنة الرسول ﷺ أنه كان يستعيذ بالله قبل قراءة شيء من القرآن. وبناءً على ذلك فالآية تأمرنا أن نستعيذ قبل البدء في قراءة القرآن. لقد ورد في الحديث: "عن جبير بن مطعم عن أبيه أن النبي ﷺ لما دخل في الصلاة كبر، قال: الله أكبر كبيراً، قالها ثلاثاً. الحمد لله كثيراً، قالها ثلاثاً. وسبحان الله بكرة وأصيلاً، قالها ثلاثاً. ثم "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم". (السنن الكبرى للبيهقي والمصنف لابن أبي شيبة، كتاب الصلاة). كما ورد في أبي داود برواية أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرأ دعاء الاستعاذة في بداية الصلاة بعد التكبير والتسبيح والتحميد. (أبو داود، كتاب الصلاة).

وكذلك ورد في الحديث أن النبي ﷺ استعاذ بالله قبل قراءة الآيات النازلة

في حادث الإفك". (أبو داود، الصلاة، والدر المنثور، تحت قوله تعالى: ﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله﴾).

ثم إن نص الآية لا يتعارض مع ما ذهب إليه، لأن كلمة "قرأ" تتضمن المعنيين: بدأ القراءة، وانتهى من القراءة أيضاً.

فوائد:

أ. هذه السورة مكية. والبعض يقولون إن فيها آيات مدنية، لكن الواقع أن رأيهم هذا لا يستند إلى حقائق واقعية، وإنما ادعوا ذلك قياساً على مضمينها. ومثل هذا الرأي لا يُعتبر رأياً يقينياً.

ب: اسمها يونس، ولا ترجع تسميتها إلى ورود اسم سيدنا يونس فيها - كما يزعم البعض - وإنما لأن موضوعها مبني على حادثة يونس عليه السلام. واعلموا أن تسمية أي سورة قرآنية بأسماء بعض الأنبياء أو الأشياء ليس أمراً اعتباطياً وكأنه لا سبب له ولا حكمة فيه، وإنما الهدف منه التذليل على أن موضوع تلك السورة أو السور يدور حول الحادث المذكور لذلك النبي أو حول صفات وأحوال ذلك الشيء.

ج: هذا ولا يُخدع عن أحد بما ذكر من عدد الآيات أو الركوعات في مستهل سور القرآن، فيظن أن رسول الله ﷺ هو الذي اختار بنفسه الركوعات ويبيّن

عدد الآيات على هذا النحو. كلا، وإنما وُضعت هذه الركوعات بعده ﷺ بزم من طويل. كما اختلف العلماء أيضاً في عدد آيات السور. وهذا الاختلاف يرجع إلى القواعد النحوية. فبعضهم ظن أن الجملة قد انتهت لدى الكلمة الفلانية، فعدّها آية، بينما مال غيرهم إلى غير ذلك. وهكذا حصل الاختلاف لديهم حول عدد الآيات.

وهذه الاختلافات على أنواع ثلاثة أولها: أنهم اتفقوا على عدد الآيات في سورة ما، ولكنهم اختلفوا في تحديد طول الآيات، بمعنى أن أحد الفريقين قال إن هذه العبارة تُعدُّ آيةً واحدة، في حين اعتبرها الآخر آيتين.

وثانيها: أن بعضهم اعتقد أن عدد آيات سورة ما أقل من عددها المتعارف عليه.

وثالثها: أن البعض قد ذكر عدد الآيات فوق العدد المتعارف عليه. وهكذا اختلف هؤلاء العلماء في تحديد عدد آيات القرآن كله.

وقد استغل هذا الاختلاف كثيراً من الكتاب المسيحيين وغيرهم من أعداء الإسلام - إما جهلاً منهم أو خداعاً للآخرين - وقدّموه كدليل على زعمهم أن القرآن الكريم غير مَصون ولا محفوظ. فقالوا وهم يشيرون إلى الفريق الذي ذكر عددًا أكثر من الآيات القرآنية: انظروا، لقد كان عدد

يدّعي أعداء الإسلام أن القرآن لا ترابط فيه ولا ترتيب. ولكن الواقع أن هناك ترتيباً رائعاً وترابطاً كاملاً في جميع المواضيع القرآنية. بل إن هناك عدة روابط تربط السور بعضها ببعض وبالاطلاع على هذا الترتيب القرآني لا يبقى لدى الإنسان أدنى شك في كون القرآن كلاماً إلهياً معجزاً.

واعلموا أن لسورة يونس ثلاث روابط بموضوع سورة التوبة التي تقع قبلها في الموضوع الشريف، وهي:

الرابطة الأولى: تجانس واتحاد السورتين في الموضوع. فقد ذكر الله تعالى في آخر التوبة أمرين وهما: قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا أَنْزَلْتُ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصرفوا صرّفَ الله قلوبهم... لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم...﴾ (الآيتان: ١٢٧ و ١٢٨). فبين هنا (أولاً) نزول الكتاب وتكذيب المنافقين له، و(ثانياً) لفت الأنظار إلى مقدم الرسول الكريم ﷺ وإلى ضرورة الانتفاع به. وهذان الموضوعان نفسيهما ذكرهما على هذه الصورة تماماً في بداية سورة يونس أيضاً، موجّهاً الأنظار إلى أهمية الكتاب فقال: ﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ ثم تحدث عن بعثة الرسول ﷺ فقال: ﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم﴾ (الآيتان ٢ و ٣).

آيات. ولكن أصحاب الرأي الآخر لا يعتبرون البسملة آية مستقلة، وإنما يقولون هي: جزء من آية "الحمد لله رب العالمين"، وبعدها ست آيات، فالمجموع عندهم سبع آيات.

إذن فبالرغم من اختلاف المسلمين في عدد آيات القرآن إلا أنه لا خلاف بينهم حول حجم القرآن. والاختلاف في عدد الآيات ليس في الواقع اختلافاً حقيقياً، وإنما هو مسألة أذواق مختلفة فقط. فإذا استغله أعداء الإسلام للطعن فإنما يشكلون بذلك دليلاً على غيبتهم هم ليس إلا.

علاقة سورة يونس بالسور الأخرى وقبل الخوض في بيان المطالب الأخرى لسورة يونس أودّ التحدث عن الترابط القائم بين هذه السورة والسور التي تلتها أو سبقتها. ومن تدبّري في القرآن أرى أن كل آية من آياته مرتبطة بالأخرى من حيث المعنى. وليس هذا فحسب، بل كل سورة منه متصلة بموضوع السور التي قبلها أو بعدها. وهناك أكثر من ذلك، حيث توجد علاقة وثيقة بين مجموعة سور وبين مجموعة سور أخرى. وهكذا نجد في القرآن نظاماً وارتباطاً واتصالاً قوياً من "باء" البسملة في سورة الفاتحة وحتى "السين" في آخر حرف من سورة الناس.

الآيات أولاً كذا وكذا، ولكن الموجود منها في المصحف اليوم أقل من ذلك، وهذا يعني أن هناك آيات ناقصة في المصحف. وهكذا قالوا بالنسبة لمن ذكروا عدداً أقل من عدد الآيات المعروف: أن المصحف الحالي فيه كذا من الآيات، ولكن القدامى ذكروا أن عددها كان كذا وكذا، وهذا يعني أن هناك آيات أضيفت إلى المصحف فيما بعد.

إن هذا الزعم خداعٌ مكشوف وكذب صريح. ذلك أن الذين ذكروا من بين المسلمين عدداً أكبر من عدد الآيات المعروف فإنهم لم يدّعوا قط أن المصحف كان من قبل أكثر محتوىً ومضموناً، بل إن كل ما قالوه هو: لا تعتبروا هذه العبارة القرآنية آية واحدة، وإنما هي آيتان. أما الذين ادعوا بعدد أقل اعتبروا تلك العبارة نفسها آية واحدة، ولم يقولوا قط بأن محتوى القرآن كان أقل مما هو عليه الآن أو أن عبارات أضيفت إليه فيما بعد. كلا ثم كلا.

فلو أخذنا -على سبيل المثال- سورة الفاتحة نجد أن بعضهم قد قال بأنها ثماني آيات، بينما قال غيرهم: إنها سبع آيات. ومن قال بثمانى آيات لا يضيف إلى الفاتحة الحالية عبارة أخرى وإنما موقفهم أن البسملة آية مستقلة، وبعدها سبع آيات والمجموع ثماني

الرابعة الثانية: هي أن سورة يونس تكملة لموضوع سورة التوبة. ذلك أن الله تعالى قد أشار في التوبة- التي ليست في الواقع سورة مستقلة وإنما هي جزء من سورة الأنفال- إلى أنه قد حان الآن ازدهار الإسلام، وقد شرعت الوعود الإلهية تتحقق كثيراً وبكل قوة، فعلى الناس أن يطهروا قلوبهم ويخضعوا أمام الله تعالى، لكي تُقبل توبتهم. ولما كان البعض يشكون -لكثرة ذنوبهم- في قبول توبتهم، لذا بيّن الله تعالى في سورة يونس موضوع رحمته، وقال إن رحمتي واسعة غالبية، وأرحم عبدي كيفما كانت حالته شريطة أن يتوب توبة صادقة كاملة.

الرابعة الثالثة: هي تلك التي توجد بين سورة يونس وبين جميع ما قبلها من السور.

فالسور القرآنية من البقرة إلى التوبة عددها ثمانية أو سبعة وفق تحقيقنا، لأن التوبة كما ذكرنا آنفاً ليست سورة منفصلة وإنما هي جزء من الأنفال، وجاءت منفصلة إشارة إلى عظمة معانيها. وموضوع هذه السور كلها واحد. ثم يبدأ من سورة يونس موضوع جديد ويستمر حتى سورة الكهف. والواقع أن كلا الموضوعين مرتبط بعضهما ببعض. ففي السور الثماني الأول قدّم الله للناس شخصية الرسول ﷺ، وإنجازاته العظيمة إثباتاً

لصدق الإسلام. كما دعاهم لاعتناقه ببيان عقائده السامية، وتعاليمه الجميلة، وعرفانه الواسع وأوامره الحكيمة، وتأثيراته القوية الطيبة. أما مجموعة السور الأخرى - يونس وما بعدها- فقد تبّه فيها على ضرورة النبوة وأهمية الدين، وبعثة النبي ﷺ والأهداف المنوطة بمبعثه، فساق على ذلك الأدلة العقلية، مشيراً إلى منهاج النبوة الذي جاء الأنبياء السابقون وفقاً له، مُبيّناً دعاويهم وأحوالهم ومصيرهم.

فالموضوع واحد في المجموعتين، مع فرق واحد فقط. ففي الأولى أشار إلى الأنبياء التي أنبأ بها الله في زمن النبي أو زمن الأنبياء السابقين عليهم السلام والتي تحققت في أوانها. بينما بيّن في المجموعة الثانية صدق الإسلام بصورة مبدئية، مشيراً إلى منهاج النبوة.

ولنتذكر أن المجموعة الأولى من السور تحتوي على سور مدنية، ما عدا الأنعام والأعراف، فهما مكّيتان، وإن تم نزولهما قبل الهجرة النبوية بزمن قصير جداً. لذلك يمكن اعتبارهما كالسور المدنية. أما المجموعة الثانية فكلها مكية، نزل بعضها في منتصف الفترة المكية وبعضها قبل الهجرة بقليل. وهنا ينشأ سؤال: لماذا دُوّت السور المدنية في المصحف قبل المكية؟ إذا كان من الأفضل والأنسب أن تُقرأ السور

الأولى من القرآن نظراً لمحتواها ومضمونها قبل السور الأخرى فلماذا لم ينزلها الله أولاً؟

والجواب هو أن كل فعلٍ لربنا الحكيم لا يخلو من حكمة! فيما أن حاجات المخاطبين الأوائل لأي نبيٍّ من أنبياء الله تعالى تختلف عن حاجات الذين يأتون بعدهم، لذلك دُوّن القرآن الكريم على عكس ترتيب نزوله. كان ترتيب نزوله بالنظر إلى أول المخاطبين به، وأما ترتيب تدوينه فكان بالنظر إلى من يأتون فيما بعد. ذلك لأنه من البديهي أن أي نبيٍّ ذي شرع جديد عندما يُعلن دعواه فلا يدور عندئذ النقاش بينه وبين الناس حول نوعية التعاليم التي جاء بها أو تحقّق الأنبياء التي كان قد تنبأ بها، لأن تعاليمه عندئذ لا تكون قد ظهرت بشكلها الكامل، كما أن موعد تحقق أنبائه لا يكون قد حان بعد، وإنما يسألونه: من هو ذلك الإله الذي جئت من عنده؟ ما هي صفاته وما هي قدراته؟ هل الوحي أمر حق؟ هل الإنسان بحاجة إلى الوحي الإلهي؟ ومن أجل ذلك يشتمل الوحي النازل عليه في بداية الأمر، على مثل هذه الأمور التي يهتم بها الناس ويشيرونها حينذاك. كما يحتوي على أنباء سوف تتحقق في المستقبل تصديقاً لدعواه، ويتضمن شيئاً من المسائل البدائية في الشريعة.

ثم يأتي زمن يدرك فيه الناس حقيقة دعواه، وينبرون لمعارضته، ويعتبرون بعثته عبثاً، ويرفضون ما يعرضه عليهم من عقائد تتعلق بذات الله وصفاته، أو أفكار حول النظام الديني. كما سيكون حينئذ أيضاً من يصدّقونه من سعداء النفوس. حينئذ ستتمس الحاجة إلى نزول وحي يبين الغاية من مجيئه، ويؤكد - بتقديم شهادة التاريخ الماضي - على توافق دعواه مع السنة الإلهية المستمرة، ويسوق الأدلة العقلية على صدقه، منبهاً الناس إلى ضرورة الاعتبار بأحوال الأنبياء ومصير أعدائهم. كما أن الوحي سيحتوي عندئذ على شيء من تفاصيل الأحكام الشرعية، موجّهاً أنظار المؤمنين إلى واجبات ومبادئ لا بدّ لهم من اتباعها في كفاحهم ونضالهم لضمان النجاح. بعدها يأتي زمن ينزل فيه الوحي الذي يكمل الشريعة ويقدمها حجة على المكفرّين، مشيراً إلى الأنبياء التي قد تحققت في الفترة الأخيرة، سعياً لإقناع المعارضين. فيقدم الوحي إنجازات النبي لكي يعرفوا بها حقيقة صدقه، فإنجازاته نفسها تصبح شهادة على أن فلاح العالم منوط الآن بتصديقه واتباعه.

أما القوم الذين سيأتون بعد ذلك فلا يكونون جاهلين ماهية هذا الدين، بل إنهم سيجدون جماعة من أتباع النبي، وسيكونون مطلّعين إلى حد ما على دعواه، وأول ما يتساءلون عنه هو: لماذا نصدقه فيما يدّعي؟ وبماذا يمتاز تعليمه على التعاليم السابقة؟ ما هي الإنجازات التي حقّقها؟ وحينما يجدون أجوبة شافية عن أسئلتهم هذه ويدركون حقّانية الدين الجديد وصدقه فسيدخلون في مرحلة جديدة، يحتاجون عندها إلى زيادة معرفتهم، وسوف يتم لهم ذلك عندما يدركون صدقه بشكل مبدئي وموضوعي إذا ما قيس بمقياس منهاج النبوة، وبعدها يتجهون إلى فهم أمور أخرى. ونظراً لهذا المقتضى الطبيعي نزل القرآن الكريم بترتيب معاكس لما تم تدوينه عليه. فقد كان ترتيب نزوله بحسب حاجات المخاطبين الأولين، وأما ترتيب تدوينه فكان وفقاً لحاجات المتأخرين. وهذا الأمر في حد ذاته يشكل ميزة عظيمة للقرآن تكفي لفتح عيون المتبصّرين.

إِنَّ مِنَ الشَّعْرِ لِحِكْمَةً

وَمَنْ يُغْتَرِبْ يَحْسَبْ عَدُوًّا صَدِيقَهُ وَمَنْ لَمْ يُكْرَمْ نَفْسَهُ لَمْ يُكْرَمْ

* * *

قَلِيلُ الْمَالِ تُصْلِحُهُ فَيَبْقَى وَلَا يَبْقَى الْكَثِيرُ مَعَ الْفَسَادِ